قَرْنَيْت[1] - التاج

إن زوار الطائف، القادمين من سهول تهامة، ذات الحرارة والرطوبة الشديدتين، ومن سفوح الجبال الحارة المحيطة بمكة، يعشقون القيام برحلات قصيرة إلى الأودية الجميلة والوهاد المتخفية وراء الثنايا التي تكونها القمم والأطراف الشرقية للسلسلة الرئيسة من الحجاز. إن ليّة[2]، المشهورة برمانها، منتجع مفضل لأولئك المتنزهين، بينما يفضل آخرون وادي محرم والهدا، لسهولة الوصول إليهما من طريق مكة. والوَهَط والوهيط[3] يزورهما عادة الراغب في قضاء عطلة آخر الأسبوع بهما، أو من بإمكانه الابتعاد ليوم واحد فقط عن المدينة. ولكن ليس من كل الأماكن المتاحة لمتعة الزوار الذين يأتون للطائف في فصل الصيف من كل سنة، ما يثنى عليه بشدة مثلما يثنى على المنطقة التي تسمى الشفا، التي لا نظير لتينها الشوكي، في الجزيرة العربية كلها - وربما العالم كله، والتي لوديانها جو أكثر لطافة ومتعة من جو الطائف، التي يعتقد بأنها جافة جفافاً شديداً لايناسب كل الأبدان. وفي الأودية العليّة تلطيف لجفاف الطقس بالندى والرطوبة الآتيتين من المياه السطحية وشبه السطحية في الوهاد الرملية التي تحبس مياه الأمطار الموسمية وغيرها.

في خريف ١٩٣٠م زرت كثيراً من الأودية الواقعة في الأطراف، التي تشمل

---

(١) قَرْنَيْت: جبل جنوب الطائف في شفا بني عمر من بني سفيان من ثقيف، ذو شعبتين إحداهما أطول من الأخرى. معجم معالم الحجاز للبلادي ج٧، ص١٢٢. (المراجعون).

(٢) ليَّة، واد كبير جنوب الطائف له روافد كثيرة، وينتشر على ضفافه العديد من القرى. (المراجعون).

(٣) الوَهط والوهيط: قريتان زراعيتان تقعان في وادي وج جنوب الطائف. معجم معالم الحجاز، ج٩، ص١٥٠-١٥١. (المراجعون).

وادي ليّة، ووادي محرم والهدا ؛ ولكني لم أجد وقتاً أبداً لزيارة الشفا. ولكن الصدفة لا التخطيط أتاح لي في أكتوبر ١٩٣١م رحلة كنت أتطلع إليها دائماً. وكنت قد أمضيت ثلاثة أو أربعة أيام في الطائف، بلغت خلالها حالة اليأس للاكتئاب العام الذي كان يسود الدوائر الرسمية وغير الرسمية، وفي بلاط نائب الملك. فقد كانت الأزمة المالية والاقتصادية في أسوأ حالاتها. وبدا أن الجميع كانوا مجمعين على أن المصدر والأصل لها هو وزير المالية، عبد الله السليمان، وإدارته ؛ وبدا أنه لا أحد قادر على فعل أي شيء لتصحيح الوضع. وفي الوقت نفسه كان موظفو مصلحة المالية هم الوحيدين الذين كانوا يستلمون رواتبهم وبدلاتهم الأخرى السخية بانتظام، بينما كان موظفو المصالح الأخرى كلها تتأخر رواتبهم - بحد يبلغ ستة أو سبعة شهور في معظم الحالات - وكان الفقر سائداً، ومؤلماً[1]. لذا؛ فإني شعرت أنه علي الابتعاد عن مثل هذا الجو مهما كلف الأمر، وقررت بسبب اليأس أن أعود إلى حر مكة والوحدة بدلاً من البقاء في طقس ألطف الحوار فيه خاو بلا نهاية. ولما قررت ذلك، طرأت علي فكرة رائعة بالتجول بمفردي في أعالي الحجاز، إن عملت لي الترتيبات اللازمة بسرعة وبلا كثير عناء. والذي حدث هو أن المشروع رتب نفسه بنفسه. لقد تمكن السيد حمزة غوث، الذي كنت ضيفه في الأيام القليلة أثناء إقامتي بالطائف من العثور على رجل يمكنه تسوية كل ما يتعلق بزيارتي للشفا. وجاء صاحبي بحمارين في صباح الرابع عشر من أكتوبر، وتم الاتفاق على أن أبدأ الرحلة بأحد هذين الأخيرين، واسمه محيسن، من قبيلة قريش، وخادمي الذي جاء معي من الرياض، عبد اللطيف، وبحمارين، في ظهر اليوم نفسه، بعد الغداء. وكان أجر كل حمار ريالاً ونصف الريال في اليوم، بما

(١) تعود هذه الحالة السيئة إلى الوضع الاقتصادي الذي عاشته البلاد في تلك الفترة المبكرة خاصة فترة الخمسينيات الهجرية/ الثلاثينيات الميلادية نتيجة للكساد الاقتصادي الذي عم أرجاء العالم. (المراجعون).

في ذلك رفقة محيسن وخدماته - اسماً ٣ شلنات (إنجليزية)، وفعلاً شلن (إنجليزي) ونصف، نسبة للحالة الخطرة للريال في أسواق الحجاز. وسرعان ما أرسلنا عبد اللطيف للسوق ليشتري إبريقاً للشاي، وكمية مناسبة من الشاي والسكر. وما عدا ذلك، فإننا سنعتمد على البر أو نصبر على الجوع - وهو احتمال بعيد الحدوث. وفي الظهر كان كل شيء قد اكتمل، والحماران واقفان على الباب. وكان حمزة قد عاد في موعده من جلسة المجلس الاستشاري ليتغدى ؛ وفي الساعة الثالثة مساءً، انطلقت مجموعتي الصغيرة، وكان خروجنا من المدينة بالباب المجاور لمسجد ابن عباس. أما محيسن -وهو شخص قليل الذكاء والكلام، على أمل أن أدفع له مقدماً أجر يوم لحماره- فإنه كان يمشي على قدميه، ولكنه كان يساير الحمارين، اللذين كانا يسيران بتمهل، بلا معاناة ظاهرة.

ولسوء الحظ - وهي حقيقة كان الواجب التحقق منها منذ البداية، ولكننا لسبب لا نعرفه لم نفعل - إنه لم يذهب للشفا أبداً طيلة حياته، وإن كان مسكنه يقع وسط أودية الحبلة وسلاسلها في طريق الطائف - مكة. لذلك فإنه لم يكن مفيداً كمصدر لأية معلومات جغرافية، ولا كمرشد أيضاً. ولكننا واتانا الحظ بعد نصف مسيرتنا في العصر بملاقاة راعية أرشدتنا إلى الطريق نحو الشفا، قبل أن نغوص في وادٍ كان سينتهي بنا في وادي لية، في الاتجاه المعاكس.

وكان مسارنا، بعد خروجنا من باب ابن عباس، يقع في اتجاه جنوبي شرقي تقريباً عندما يصعد المرء الوادي، الذي تقع فيه ضواحي الطائف ذوات الحدائق، وهي الحوية، وشِهْر وقراهم، بهذا الترتيب من أسفل إلى أعلى. وبعد تجاوزنا للضاحية الأخيرة انحرفنا قليلاً عن الوادي عبر الأطراف المنخفضة

لسلسلة كانت إلى يميننا حتى التقينا ببطن سيل آخر، غليظ السطح. وفي طرفه الأعلى أتينا على بعض البساتين المسورة بالحجارة، وعلى قليل من البيوت والأكواخ المبنية بالحجارة الغليظة نفسها - ومنزلة القصر، وبها أشجار من السدر نامية جداً، في وسط رقع واسعة من الدخن والبرشومي (كمثرى لاذعة الطعم جداً).

وكنا آنذاك قد سرنا لنحو ساعة، قطعنا خلالها نحو ثماني كيلومترات، ودخل طريقنا في منطقة تلال على سفوح الجبال يغلب في تكوينها الجرانيت الأحمر، والكوارتز والهورنبلند، ثم دار دورة كاملة لليمين في نقطة تمكنا فيها أن نلقي فيها آخر نظرة على مئذنة مسجد ابن عباس، البيضاء البارزة. وبعد مسافة قصيرة مررنا على مصلى بسور منخفض من الحجارة على جانب الطريق، في مضيق بين عدة تلال منخفضة، شاهدت فوق واحد منها علامة طريق (تركية) قديمة.

وربما نكون في هذه النقطة قد صعدنا نحو ٢٠٠ أو ٣٠٠ قدم فوق مستوى الطائف. وكنا قد اقتربنا من وادي العصب، الذي دخلناه بعد ذلك بقليل، وذلك بعد قطع نحو اثني عشر كيلومتراً من نقطة البداية. وتابعناه صاعدين فيه في اتجاه جنوبي غربي - سائرين في بطن واد من حبيبات ناعمة من الجرانيت والرمل، عرضه نحو ثلاثين ياردة في المتوسطً بين الصخر الطبيعي في السلسلة الذي يمثل ضفته اليسرى وبين سور طويل متهدم من الحجارة لحجز الماء. وتنتشر بغزارة أشجار من السلم (الأكاسيا) حسنة النمو في الوادي الذي بدأت تكثر فيه الصخور والجلاميد شيئاً فشيئاً كلما صعدنا فيه، ابتداءً من منطقة محظورة من المزارع المدرجة، بها بعض الأكواخ من الحجارة، نوعاً ما في

أسفل المجرى من النقطة التي بدأنا منها دخولنا. وهنا وهناك نحو عشرين قدماً فوق مستوى مجرى السيل، وعلى منحدر ضفته الصخرية يستطيع المرء أن يرى ما يعتقد أنه كان بقايا قديمة لقناة مغطاة متصلة لمسافة؛ ولعلها كانت درباً ممهداً مبنيّاً للخيل والبغال.

وعلى بعد نحو كيلومترين فوق مدخلنا جئنا على نهاية ينبوع صغير، جار، وإن كان بطيئاً، تابعناه حتى منبعه الضئيل نحو كيلومتر في أعلى الوادي، حيث كان الماء الجوفي قريباً من سطح الأرض. وقبل هذه النقطة بقليل كنا قد جئنا على سد صغير من الحجارة، لافت للنظر، ارتفاعه نحو ثلاثين قدماً، ومبني من حجارة من الجرانيت الأحمر غير المهذبة، يمتد لنحو ثلثي الطريق عبر الوادي الذي كان عرضه نحو خمسين متراً في هذا الموضع، بين ضفتين من الصخر شديدتي الانحدار. وأظن أنه ربما حدث اجتياح من سيل عرم لهذا السد في زمن ما من الماضي المجهول، وأن هذه القناة العالية سالفة الذكر كانت لتوصيل المياه المتقطعة في برك لري الحقول أسفل الوادي. وربما كان مناسباً أن ينوه المرء بأن في كل ريف الشفا علامات لجهد الإنسان على شكل سدود أو حقول مدرجة، والتي لاشك في أن أصلها كان من صنع أجيال في طي النسيان الآن، ولا تزال مستخدمة الآن استخداماً واسعاً لأغراضها الأصلية، وهي الري، وإن بدا لي أن انهيار هذه السدود والحيطان كان فوق الإمكانات الهندسية المحدودة للسكان المعاصرين، المكافحين المنكوبين.

ومن السد اتخذ طريقنا اتجاهاً في غرب الجنوب الغربي، صاعداً وادياً عريضاً، بطنه رملي، به غابة من شجر السلم، وأمامنا، في خط مستقيم وعلى مسافة بعيدة، السفوح المغطاة بالعرعر للجبل المسمى دكة. وبعد مسافة قصيرة

من الصعود جاء واد فرعي ليدخل في العصب، يكاد يكون من جهة الجنوب، فقام صاحب حمارنا وبثقة تامة بتوجيهنا بالصعود فيه حتى تبين لنا خطؤه عن طريق أحد الرعاة، وذلك للمرة الثانية وقبل أن نبتعد فنتوه. وكان الطريق في هذا الوادي سيقودنا فوق سلسلة جبلية إلى واد آخر يسيل إلى وادي ليّة، الذي يصب فيه وادي العصب أيضاً - في عكس اتجاه سيرنا. وبعودتنا للوادي الرئيس تبعناه في غابة السلم الكثيفة، وبعد فترة وجدنا أنفسنا نسير بمحاذاة سور من الحجارة يفصل مجرى السيل من سفح الضفة اليسرى للوادي. وفوقنا على سفح الجبل المخضر بمختلف الأعشاب، لمحنا قطيعاً كبيراً من الأغنام البيضاء؛ وبعد ذلك بقليل أتينا على سد رائع آخر من الحجارة غير المهذبة، ارتفاعه اثنا عشر قدماً، وسماكته يمتد بعرض الوادي إلا لنحو خمس عشرة ياردة، قريباً من أسفل الضفة اليسرى، حيث كانت السيول قد اجتاحت بعضاً منه. والآن بدأنا نسير صاعدين مبتعدين تدريجيّاً عن بطن مجرى السيل، يتجه طريقنا في الجنوب الغربي صاعداً منحدر الضفة اليسرى، إلى مضيق رأيت فيه نقشين عربيين باليين على جلمودين من الهورنبلند. وكان طريقنا كحد مثلم لسكين، مكوناً من حجارة من الجرانيت الأحمر منسدلة كأنها ألواح، وذلك هو التكوين الفطري الأول لهـــذه الأرض من الطائف إلى السلسلة الجبلية وقممها العالية.

وظللنا نصعد تدريجيّاً حتى وصلنا الفاصل بين مسيلي مياه وادي العصب ووادي عورالة، الذي قدرته بميزان الضغط الجاف (أنيرويد) بنحو ٣٥٠ قدماً فوق نقطة دخولنا الوادي الأول، الذي كنا قد تابعناه لساعة ونصف الساعة (لعلها اثنا عشر كيلومتراً). وكان إلى أسفلنا حين بدأنا الهبوط من المضيق، واد رائع من السلم في جنب الجبل، يدخل في مجراه الجنوبي، إلى وادي ليـة،

وادي عورالة، الذي كنا قد مررنا فيه وبه قطيع كبير من الأغنام السوداء والبيضاء على رماله المظللة. وعبرنا مجرى السيل، وفي ظلمة الأصيل المتزايدة صعدنا المنحدر الغربي، من الوادي، شديد الانحدار، حتى قمته، ومنها شاهدنا، أو نصف شاهدنا -لمفاجأتنا، ومفاجأة مرشدنا أيضاً- عمت، وهي مجموعة أو مجموعتان من البيوت المبنية من الحجارة معها حصن مربع رائع المنظر في وسط عدد من الحقول المدرجة. وبصعوبة شديدة تمكنا من العثور على طريق بين شبكة الحقول المسورة بالحيطان أو التراب يقودنا إلى مجموعة صغيرة من الأكواخ، حيث كانت الحاسة الفطرية لمرشدنا قد جعلته يحس بأننا سنلقى ضيافة عظيمة الليلة. لقد بدأ كلبان أسودان شرسان ينبحان بشدة لينبها بقدومنا. ولكننا تجاوزناهما بسلام في بضع دقائق ودخلنا غرفة مضيفنا المتوقع (من الواضح أنها كانت غرفة المعيشة الرئيسة إن لم تكن الوحيدة)، وهو شخص اسمه صالح بن عمار، الابن الثاني للمالك الغائب لهذه الفدادين القليلة من وادي الأرض الجبلية. وأبقينا في الخارج لبرهة من الوقت ريثما تخرج النساء ليدخلن المطبخ. وسرعان ما استقرينا في الغرفة بكل راحة. ولم يطل الانتظار قبل مجيء العشاء الذي كان خبزاً معمولاً بالسمن مطهيّاً على النار مع عسل الجبل. ثم آوينا إلى مسجد معروش بسعف النخيل، شبه مكشوف، مرتفع بنحو بضعة أقدام فوق مستوى البناء الرئيس، صار مكان مبيتنا، بينما عادت الغرفة، التي كنا قد أخليناها، بلا شك لاستخدام العائلة لقضاء الليلة فيها.

وكنا في ذلك المكان على ارتفاع ٨٠٠ قدم فوق مستوى الطائف. ولكن درجة الحرارة كانت عالية قد بلغت سبعاً وعشرين درجة مئوية، وهي تقريباً

أعلى مما كانت عليه في الطائف في الليلة السابقة أو الليلتين السابقتين - لقد فاقت ليلتنا الأولى غيرها بدرجة حرارة منخفضة، كانت نحو ٥، ٨ درجة مئوية. لقد كان بيت أحمد بن عمار، والد صالح، في أصغر الحيين في المستوطنة - يتكون أكبرهما من نحو عشرة أكواخ مع الحصن السابق ذكره في أسفل تل هرمي اسمه تفترس. ويجري وادي عمت إلى الشمال قليلاً من الغرب - وإلى الوهيط في نهاية الأمر - ويلتقي به ما بين الحيين وادٍ سحيق أضيق منه، اسمه شعب صبرة القادم من جهة الجنوب الشرقي. به حقول مدرجة أيضاً، وهنا وجدنا شواهد على صناعة الشمال، وهي صناعة راسخة في جبال الحجاز، أعطي بعض منها لعبد اللطيف ومحيسن صاحب الحمار. والأخير قرشي من مكان قريب من الهدا، يلبس الثياب الحمراء كالتي يرتديها مضيفنا، مكونة من قميص وإزار يصل إلى الركبة، مصبوغة بصبغة من قشرة عرق شجرة السدر بعد غليه أو تركه في الماء.

والرجال في هذه المنطقة نحيلون بصفة عامة، بسيقان رفيعة، جميلون في معظم الأحوال، يسيرون بخطوة حية مرحة. إن صالحاً والسكان الآخرين في عمت ينتمون إلى بني سفيان (فرع الحجة). وكان من الواضح أنه قد نشأ في مدرسة الحياة الشاقة التي كانت تظهر في طبع حاد وسريع وانفعالي أحياناً ومسيطر أحياناً أخرى. لقد قبل بأن يرافقنا فيما تبقى من رحلتنا مقابل ريالين في اليوم. وكان مصدر ضيق لنا أحياناً حين كان يحاول توجيه تحركاتنا بما يوافق ذوقه أو راحته، لا بما يوافقنا نحن. ما عدا أمراً واحداً، فإنني كنت أسوده في كل الأحوال، وإن كان يثأر كل ليلة حين يشير إلى مضيفينا بأنهم إذا ذبحوا ذبيحة فإن ذلك لن يكون على حسابهم. وفي وجبة العشاء كان ذا كفاءة عالية

ومهارة وحركة، يقطع بضربات سريعة حادة بسكينه بيد، ويودع في فمه بيده الأخرى مقدار ما يوزعه على بقيتنا. لقد كان شخصاً مثيراً، وإن لم يكن ممن يعجب الإنسان تماماً. فمن الواضح أنه كان قد لقي قدراً مناسباً من النجاح في الكفاح من أجل العيش في هذه المنطقة الفقيرة. ومن الواجب أن أقول شيئاً إنصافاً له. فهو، وإن كان قد عقد صفقة رابحة لخدماته كمرشد - لقد كان ريال واحد فقط كافياً جداً في الظروف الحالية - لم يرض أن يتقاضى أي شيء مقابل ضيافته لنا بالخبز والعسل. وهو مثله مثل كثيرين من جنسه، كان قليل الكلام، يستخدم الإشارة والطنطنة للتعبير عن كلامه. وإذا ما سأله أحد عما قاله لآخر فإنه كثيراً ما يجيب بشيء من جلافة واضحة، وإن كانت غير مقصودة، قائلاً: "ماش"، أي لاشيء. ولكن كانت هناك لحظات استمتعت فيها بصحبته جداً في الحدود الضيقة لمنطقته القبلية، التي لم يكن يعرف شيئاً تقريباً خارجها من حيث الجغرافية المحلية أو أسماء الأشياء، وإن كان لايعترف بذلك، وقانعاً باستخدام أسماء للأماكن التي لها دلالات معينة أكثر من "فرع" و "حرجل"، مثلاً.

وفي صباح اليوم التالي نهضت مبكراً لأتفحص المنطقة حولنا قبل إفطار الخبز والعسل أو السمن، حسب الطلب، ليحثنا في طريقنا. وكان الوادي في دائرة المنطقة السكنية قد سدته سدود من الحجارة، أو التراب، أو الاثنين معاً، مليئاً بالحقول المدرجة التي كانت تبدو جرداء تماماً، ذلك لأن القمح كان قد حصد قبل مدة طويلة، ولن يحين موعد البذر الجديد حتى نوفمبر. وكان التين الشوكي متوافراً - والشفا مشهورة بهذا النوع من الإنتاج الرائع من الفاكهة، وإن كانت رخيصة جداً، حمل جمل بما يساوي شلنين أو ثلاثة - ولكن الموسم قد انتهى، وليس في المكان سوى شجرات متفرقة من التين، والرمان،

وغيرهما. لقد كانت الأكواخ والبيوت الصغيرة في الحي من الحجارة، ليس فيها ظواهر تلفت النظر. ولكن الحصن، أو برج الدفاع، الذي يعد مثالاً لما في أرض الشفا، يستحق وصفاً مفصلاً ليغني عن كل العينات الأخرى التي على شاكلتها، التي يراها المرء هنا وهناك. فهذه الأبراج ذات قاعدة مساحتها عشرون أو خمسة وعشرون قدماً مربعاً، تضيق في أعلاها لتكون أقل من ذلك في الإطار، ذات أساس قوي في الصخر الجرانيتي، ومبنية بناءً جيداً من حجارة الجرانيت، بلا ملاط ليمسك بعضها بعضاً، فيما رأيت. وجانبا الباب مبنيان من حجارة أكبر، ارتفاعهما أربعة أو خمسة أقدام، تعلوهما عتبة منخفضة. والباب من خشب سميك غير ناعم القطع. ونحو ثلاثة أقدام من السطح إطار من الحجارة السوداء (من الهورنبلند) بارزة لنحو قدم أو ثماني عشرة بوصة، تحمل متراساً (بارابيت) من الحجارة (الكوارتز) السوداء والبيضاء منحوتة في شكل ذروة متدرجة. وفي الإطار، فوق الباب مباشرة، ثقب يستخدمه المدافعون ضد أي هجوم من المدخل الوحيد الممكن. والواضح أن هذه الحصون كانت للدفاع ضد غارات الأعداء، وفي أيام السلم، كهذه الأيام، تظل مغلقة ومهملة، بينما يفضل صاحبها وعائلته ومجموعة حيواناتهم وطيورهم، من الإبل، والغنم، والدجاج، والكلاب، والقطط وغيرها، السقائف ذوات الدور الواحد، والأفنية المكشوفة، المتجمعة حول هذه الحصون. لقد بدا لي غريباً، بعد ما رأيت نحو عشرة من هذه الحصون، أن ينشأ هذا النوع المتميز من العمارة في منطقة محدودة كهذه المنطقة، بينما لم تؤد ظروف الفوضى وانعدام الأمن نفسها إلى هذه الظاهرة نفسها، في أي مكان آخر، خارج أرض بني سفيان، حسب علمي. إنها جذابة فعلاً. وكانت تنتابني نشوة الفرح كلما لمحت عيناي مثل هذا البرج في الأودية المتوحشة من

هذه المرتفعات.

في الساعة السابعة صباحاً بدأنا رحلتنا صاعدين في وادي عمت. وكنت أنا وصالح قد سبقنا الآخرين بالسير، بينما كانت الحمير تجهز للحاق بنا. وأثناء صعودنا طريقاً جبليّاً غير معبد من رأس الوادي، بدأنا نلقي لمحات أوسع في الأراضي المحيطة بنا (بما فيها الحبلة وغمير)، من مضايق متتالية من الجبال. ومن أعلاها (نحو ٣٥٠ قدماً فوق مستوى عمت) نظرنا أسفلنا نحو الحقول المسماة سد. وهي حي صغير من أكواخ مبعثرة من الحجارة وسط أرض زراعية واسعة جداً تسقى من آبار. لقد كانت القطع باهتة الخضرة (الفصفصة والطماطم) رائعة المنظر مقارنة باللون الكالح الأحمر لسفوح التلال الجرانيتية، وباللون الأخضر الغامق لغابات العرعر التي أصبحت أشد كثافة الآن؛ وأمامنا شمخت عمالقة الحجاز بكل عظمتها - قرنيت، ودكه، وبرد، والحبلة - فهي ليست سلسلة جبال وإنما قمم منفردة، ترتفع عارية في مسافات متباعدة من الهضبة الجبلية.

ولما بلغنا أسفل الوادي، ملنا إلى مكان لنمضي بعض الوقت مع رجل يروي زرعه ويحث بقرتيه لسرعة إخراج الماء من بئر عمقها نحو عشرين قدماً، محفورة في الصخر الجرانيتي. قال: إنها لعيشة صعبة هذه الأيام، أو بكلمات بهذا المعنى، لأن هاتين البقرتين، بعد ساعة أو ساعتين من العمل المضني، تجففان البئر. والناس هناك، في أعلى الوادي، بآبارهم الأشد عمقاً، يحصلون على ماء أوفر. قال مضيفنا، ناظراً إليّ باهتمام غريب: آه! ليت لي مالاً فأحفر بئري لقامة أخرى أو قامتين أعمق من ذلك لأضاعف حصتي - انظر إلى الحقول التي قدرت على زراعتها، وتعتمد الآن على السيول الموسمية،

والتي أصبحت قليلة مؤخراً. لعلك تستطيع مساعدتنا، وما كان بوسعي تعزيته بشيء سوى القول إن دراستي (أو دراسة آخرين) لحاجته قد تؤدي يوماً ما إلى الاستجابة المنشودة من الحكومة في ظروفها الصعبة هذه[1].

وفي وسط مستوطنة السد (التي تملكها جماعة الحجة) تل من الجرانيت تعلوه صخرة منفصلة، تقف وقفة خطرة على قمته الرفيعة. ويسمونها صبا، كما قال لي صالح رداً على استفساري عن تاريخها. لقد وضعها الله هناك. ووراءه، في رأس الحوض، بركة سطحية من الماء، تنز من رمال في منخفض، وسط غابة حقيقية من العرعر وجلاميد من الصخر، رأيت على سطحها، هنا وهناك، خربشات من النصوص الدينية بخط عربي حديث. وكانت هناك راعية ترعى قطيعاً لها من الأغنام لدى الماء، قد جلست على صخرة تنظر إلينا ونحن نشرب. وحين مررت بها لمحت أنها ذات عينين لماعتين وبشرة صافية. ولكن في هذه البلاد لا تحية بين الرجال والنساء - فواصلنا سيرنا في عرعر الوادي. ومرت بنا قافلة صغيرة، محملة بسيقان عرعر للتسقيف، في طريقها، وكما قالوا، من قرنيت، المركز المعروف لزراعة العرعر للتجارة، إلى الطائف. والعرعر لايحتاج إلا لقليل من القص والتهذيب، وبانتظام، لينمو مستقيماً. وعلى أي حال، فهنا صناعة محلية يمكن تطويرها لتنافس منافسة ناجحة و "جندل"، التسقيف الذي يستورد كل عام من زنجبار.

أدى بنا الهبوط من المضيق التالي إلى سد مبني بناء جيداً من الحجارة، ارتفاعه نحو خمسة عشر قدماً، يعترض وادياً ضيقاً يجري في وادي منتلة، وفي بطنه حقول مدرجة، مع أكواخ معلقة على منحدرات الوادي هنا وهناك.

(١) عني الملك عبدالعزيز بتطوير مصادر الشرب، وشق الطرق في الأماكن الجبلية، واليوم أصبحت منطقة الشفا بالطائف التي قصدها المؤلف من الأماكن السياحية بالمنطقة التي يصل إليها الناس بسهولة عبر الطرق الحديثة، وأصبحت تتمتع بكافة الخدمات. (المراجعون).

وبالإضافة إلى حس صالح الجغرافي، فإن العادة المحلية بإعطاء كل قسم من الوادي المتعرج اسماً مختلفاً قد جعلت من الصعوبة عليّ بمكان تكوين فكرة واضحة عن أنظمة الوادي في هذه الأنحاء. ولقد قيل لي إن وادي منتلة (أو المناتل كما يسمى بصيغة الجمع أحايين كثيرة ليشمل عدداً من الأودية العميقة الجانبية التي تكون هذه المجموعة الزراعية) يصب في وادي ليّة آخر الأمر، وأن أجزاءه العليا ليست سوى وادي حرجل، الذي سنأتي إليه بعد قليل، والذي يبدأ مجراه في مكان عال في طرف سلسلة الحجاز. وكان هناك حصن، تركي المظهر، يعلو لساناً من سلسلة تطل على المنظر. ومسافة ما في اتجاه مجرى الماء مرج من الزعتر البري يوحي بوجود مياه سطحية. إن أودية المناتل لفرع من بني سفيان، تمتد من سفوح قرنيت شمالاً إلى الفرع، بما فيها المكانان أيضاً. وفرع الحجة يقع إلى الشمال والشرق من هذه السلسلة، مع هذيل وقريش إلى الشمال منهما أيضاً، الأوائل منهما إلى جهة الغرب والأواخر إلى جهة الشرق.

لقد كانت تفصلنا سلسلة واحدة عن وادي حرجل (ينطق حريل)، الذي دخلناه عند الحقول المدرجة لصربة، وهي قرية صغيرة من أكواخ من الحجر. وأسفل الحقول كان المنظر جميلاً، بوفرة مدارية نوعاً ما، مركزه بقعة من المياه السطحية تكاد تكون راكدة تماماً، تغطي معظمها مادة خضراء لزجة، وإن كان بها وشل من الماء الجاري أو الزاحف. وحول هذا الماء نمت كتل من الزعتر وقرة العين، وغيرهما من النباتات، كما ضج المكان بأزيز الحشرات. وبالفطرة توقف الحماران في ظل بعض السلمات، وقد أحسا بأن الموعد موعد غفوة، وفعل عبد اللطيف ومحيسن مثلهما، بينما كنت أبحث عن الفراشات، وكان صالح يبحث عن الطعام في اتجاه القرية، نحو ٢٠٠ متر نحو الجهة العليا من

النهير. وكنت قد صادفت قدراً كبيراً من النجاح في بحثي، عندما عاد ليخبرني بأنه خالي الوفاض. لذا، وبناءً على ذلك، قررنا أن نصعد إلى قرية حرجل، نحو منبع النهير، حين خرجت لنا، ومن حيث لاندري، مجموعة من النساء والأطفال كانت تتابع حركات شبكتي لصيد الفراشات من وراء صخرة، ومن مسافة بعيدة. ثم برز رجل قرر أن يغامر ويعرض علينا ضيافته المتواضعة، بعد بعض التشاور الهامس مع صالح. ومهما كان فقر هؤلاء الناس، ومعاناتهم الشديدة من جفاف تلك السنة، فإن أهل الجبال يعدونها خسة أن يبيع المرء الطعام، وعادة ما يخرجون من مأزق الضيف المفاجئ باعتذارهم بخلو حافظة الطعام. ولكن لهم عيناً (ولا يتورعون من اتخاذ الخطوات الضرورية لتصديق ظنونهم) ترقب الفرصة الأساسية. ففي حالتنا فلا بد أن يكون صالح قد طمأن مضيفنا بأننا لسنا معدمين ولا بخلاء. لذا؛ فإننا بعد حين وجدنا ظلاً ظليلاً تحت سور من أشجار التين قريباً من القرية، بينما كانت الأسرة الفاضلة لمضيفنا تعد الطعام، وأعد عبد اللطيف الشاي الذي كان هو النوع الوحيد من الطعام الذي أحمله معي أبداً في مثل هذه المناسبات. ولا نظير للشاي للجوال المنهك، وإن ندر تجول المرء بعيداً في الأماكن المأهولة من الجزيرة العربية دون أن يلقى وسائل الراحة الأصلب منه - وهي كثيرة بصورة مذهلة أحياناً - التي قد يحتاج إليها المرء من وقت لآخر.

وبينما كان الطباخون مشغولين، كنت أصطاد. وبالرغم من صيحات الشفقة لي لأدخل من الشمس، فإني ظللت في بحثي عن الحشرات بتوفيق كبير، حتى جاءوا بقدح كبير به عصيدة من القمح، لا تبتعد كثيراً عن "البورج"، في وسطها حفرة بها السمن. لقد كانت شيئاً جيداً، وإن كنت

شخصياً لا آكل السمن صافياً كالعرب، الذين يفضلونه على العسل ! وقبل الأكل بقليل صادف أن مر بنا شخص ضخم في ثياب بيض، في طريقه إلى حرجل، فمال نحونا ليشاركنا في الأكل. وكنت قد ظننت من لبسه أنه من سكان المدينة مثلنا يتنزه، ولكني كنت مخطئاً، إذ لم يكن أحداً غير أمير حرجل، واسمه سالم، كان قد ذهب إلى ليّة ليجمع ديوناً له فات أوان سدادها. وبعد الأكل أخرجوا غلاييهم اليمنية الطويلة والتمباك (لعله من حضرموت)، وبعد ذلك وجدتها في كل مكان في هذه الأرجاء.

وعندما قاربت الساعة الثالثة بعد الظهر استأنفنا سيرنا صاعدين في وادي حرجل. ولبعض من الوقت كنت أمضي لصيد بعض الفراشات هنا وهناك من الزعتر البري، الذي كان ينمو بغزارة بمحاذاة ضفتي المجرى، الذي كان الماء بادياً على سطحه في مسافات متباعدة. لقد كان وادياً بديعاً، يجري بين منحدرات مغطاة بالعرعر. وكنا قد سرنا لنحو نصف ساعة (قل ثلاثة كيلومترات، إذ إني كنت راقبت خطوات الحمارين فيما بعد بين الوهيط والطائف - وكنت قد قمت بالرحلة بسيارة - فوجدت أنها ما بين ستة كيلومترات أو ستة كيلومترات ونصف في الساعة، في خطوة ثابتة) حين جئنا إلى أسفل حقول حرجل، ومفترق الطرق. وتوسل إلي سالم لأقضي الليلة معه، وكنت سأستجيب لذلك سعيداً، ولكن ذلك كان سيعني التضحية بصعود قرنيت، الشيء الذي كنت قد عقدت عليه العزم (والفضل لاقتراح عفوي من صالح)، والذي بدأ يشمخ أمامنا بكل عظمته. لذلك فإننا انحرفنا عن الوادي صاعدين المنحدر، الذي حاذينا خطوط ارتفاعه في صعود مستمر بمحاذاة حافة وادٍ عميق، اسمه سُنَّه. وإلى اليمين خلفنا، كان حصنا قرية

صالح، وأمامنا وعلى مسافة قريبة كانت حقول سُنَّه المدرجة، على ارتفاع يزيد على ألف قدم فوق مستوى الطائف حوالي ٥٥٠٠ قدم فوق مستوى البحر. وقام صالح بمحاولات يائسة ليغريني بالتوقف للمبيت، ولكني كنت أرى أكواخاً أمامنا حتى أسفل جبل قرنيت، وأصريت على عدم ترك أي شيء للغد سوى الصعود.

لقد تكللت وقفة قصيرة للتفاوض مع من قد يكون مرشداً إلى القمة بالنجاح التام، وفي ربع ساعة كنا قد خيمنا حول كوخ خال في قرية الغريف الصغيرة، الواقعة على السفح السحيق للجبل - تركت داخل الكوخ لرفيقّي، بينما أمرت أن يفرش فراشي فوق جلمود من الجرانيت الأحمر. وكنا الآن نحو ١٥٠٠ قدم فوق مستوى الطائف، وكما حسبته، ربما نحو ١٠٠٠ قدم تحت القمة، التي كنا نؤمل بأن نقف فوقها في اليوم التالي. وفوقنا كانت غابة العرعر منتشرة فوق سفح الجبل حتى تكاد تبلغ القمة. وكانت راعية قد ساقت قطيعها الصغير من الأغنام في الوادي الواقع أسفل من موقعنا إلى حظيرتها المبنية من الحجارة والأغصان المقطوعة، غير بعيد من كوخنا، حفظاً لها من الذئاب؛ وقبل أن أتبين ما كان يدور، إذ بواحد من القطيع يقاوم وهو بين أيدي الرجال الذين قدموه إلي ليكون طعامنا. وكانت الساعة متأخرة من الليل، فتشفعت بلا فائدة عن تلك الروح المسكينة التي كان إزهاقها يعني دولارات لأصحابها في الصباح، كما يعني لحماً لنا كلنا تلك الليلة. ولقد بذلت جهداً للحيلولة دون ذبحها فوق فراشي، بعد ذلك شاعت الفرحة في المخيم حين تجمع الكل ليعين كل واحد منهم الآخر على جثتها. وحين يكون العربي جائعاً فإن الأكل يصبح أهم شيء. والطعام، للأعرابي الجائع، أهم الأشياء كلها، ويصبح طبخه همّاً عامّاً، ولا يتحسر المرء على الساعات الطويلة التي تصرف في التحميص المتأني

والدقيق للبن وطحنه وعمل القهوة. وظهر لنا رجل مسن من الأكواخ التي كانت أسفلنا، يسأل عن شيء ما يخفف آلام الصدر. وكان يتكلم بثرثرة الشيخوخة التي لم تحفظ شيئاً من ذكريات الشباب وأيامه. وقد عمي في السنوات الخمس الأخيرة، ولكن الطائف ومكة كانتا حدود رؤياه للعالم - إذ لم يكن قد زار جدة قط -.

وبعد الانتهاء من العشاء - وكان وجبة دون المستوى من لحم غنم وأرز لم يحسن طبخه - هيأنا أنفسنا للنوم، لقد نام رفاقي مجتمعين في جو غير مناسب في داخل الكوخ بينما نمت أنا تحت ظلة السماء الزرقاء المسودة المرصعة بالنجوم. وبعد الفجر بقليل صحوت لأجد أن أدنى درجات الحرارة كانت ٥، ٣٥ درجة فهرنهايت. وجيء بإفطار من الشاي والخبز الجاف، حاراً من الفرن، وفي السادسة والنصف صباحاً بدأنا صعودنا ؛ برفقة صالح وثلاثة من أهل القرية. ولم تكن هناك أية صعوبة في الصعود، إلا أن رفاقي، لابسي الإزار المخطط والحفاة، كانوا في وضع أفضل مني في لباسي العربي العادي، من غير عباءة، وبنعلي الذي كان علي خلعه بعد كل مسافة وأخرى للتعامل مع الرقع الواسعة من الجرانيت الأخمر العاري، المعترضة طريقنا في زاوية من خمس وأربعين درجة. ولم يرق لقدمي السطح الحاد للصخور الخشنة، التي تجاوزناها لندخل في أخدود كثيف من العرعر والخزامى البري، اللذين يصدران إلى مكة حملاً على الجمال - بشلنين أو ثلاثة لحمل الجمل الواحد في السوق - ليصبحا عطوراً غالية الثمن. وتسمى " لرم " ولعلها تعني " ضرم " لأن قلب الضاد لاماً سمة للهجة بني سفيان، وربما للآخرين من هذه القبائل الجبلية، الذين يقولون "لهر" و "ليف" ويعنون "ضهر" و "ضيف"، ويسمون أحد هذه الأودية "الليّق" أو "الضيّق"، وقدموا لي ماءً قائلين

" أنت لامي ؟ " (ظامي أو ظميان كما يقولون في نجد) .

وفي الأخدود لبست نعلي مرة أخرى تلافياً للشوك وغير ذلك من الحوادث . وكان علينا شق طريقنا ، أو نلتقط ما عليه ، خلال الأعشاب والعرعر التي ندر أن مستها يد إنسان حتى وصلنا الأرضية الجبلية التي تقف عليها القمم الأربع التي أعطت قرنيت شكله الفريد الذي يراه المرء من بعد ، وربما اسمه أيضاً - إن قبل المرء الرأي الذي كان قد أبداه لي وبكل جدية واضحة ، وإن كنت لا أعرف له سبباً ، وكيل الوزارة للشؤون الخارجية إليوس غالوس في حملته سنة ٢٤ قبل الميلاد ، حين شبه القمة بإكليل ، فسماها " كورونا تا " . فالشبه لافت للنظر ، وإن كان أقرب في شكله إلى غطاء رأس الهوصار ، حيث تمثل قمتاه العاليتان الشرقيتان الريشتين الواقفتين .

وأحسست ونحن نقترب من تلك النقطة جدالاً بين رفاقي حول أي القمم سنصعدها . وبطبيعة الحال ، كنت قد حسبت أننا سنتجه إلى أعلاهن ، ولكنهم فيما بينهم كانوا قد قرروا التوجه إلى القمة الغربية ، الأيسر منهن ، ذات الذروة المسطحة ؛ ولم أستبعد وجود عقبة وهمية في الاتجاه الآخر ، ربما كانت شيئاً تبقى من رمز وثني . وبدا لي بطلان حجتهم بأن قمة الريشة لا يمكن صعودها بلا حبال ، لما بدا لي من وجود صدع في الجبل يعلوه العرعر يؤدي إلى القمة . فجادلت ، ولكنهم تمسكوا برأيهم ، فأدركت أن الأمر لايستحق كل ذلك الجدال لأن الفرق بين القمم المختلفة لايتجاوز المئة قدم . وبعد إطلاق ما بدا لي أنه تنهيدة ارتياح ، اتجهوا جهة اليمين لصعود القمة الغربية ، الأسهل نسبيّاً . ثم نظر أحدهم خلفه ليقول لصاحبه : إنه هناك ، مكان التضحية ! ولكنهما

لم يفصحا بالقدر الكافي لي عن تساؤلي، واكتفيا بإخباري، وبقدر ما قدرت عليه من محاولتي جعلهما يفصحان لي، بأنه كل عام، في شهر رمضان (العمرة)، يأتي أهل المنطقة ببقرة أو ثور لهذا المكان ليضحوا به[1]. وكان الواجب علي أن أكون أشد إلحاحاً، ولكن اللحظة مرت، وفاتت علي زيارة ما يعتقد أنه كان "مكاناً عالياً" للوثنيين القدامى، تاركاً بذلك سراً لمناسبة أخرى. وفي مثل هذه الأشياء، ومع كل عقلانية الإسلام، فإن هؤلاء الناس لهم نقاط ضعفهم. وما عدا أحدهم فقط، فإن الآخرَيْن ابتعدا عنا في فزع حين بدأت أصور القمة الأعلى من فوق القمة الأدنى منها، وحين دعوتهم ليصَوَّروا في الصورة.

إن القمة من حجارة صلبة عارية من الجرانيت الأحمر، وجلاميد ضخمة كتلك الساقطة حولها. وكانت هنالك بركة من ماء المطر الآسن في حفرة من الصخر، كما كان هناك كهف مكون من صخرة علت شرخاً في الجبل، وصفه لي أحدهم بأنه كهف ذئب. وفي صعودنا شاهدنا جحور أرانب (وبر)، مع آثار بعر وبول في مداخلها. وبعد مسافة بلغنا ذروة القمة الغربية، وكان رائعاً ذلك المنظر الذي وقعت عليه أعيننا. وبدا لي من قراءة جهاز الضغط غير المائي (الأنيرويد) أننا كنا على ارتفاع نحو ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. وظننت أن نحو ١٠٠ قدم أخرى قد تكون هي الفرق في الارتفاع بيننا وبين أعلى ذروة للجبل، التي تبعد عنا بنحو ٣٠٠ متر. أما أختها، القمة الأخرى، فإنها أقل

(١) لعل الهدف هو الاحتفال بقدوم شهر رمضان المبارك، لكن العمرة ليست وصفاً أو وقفاً على شهر رمضان، إذ تجوز العمرة في أي وقت من شهور السنة، لكن العمرة في شهر رمضان لها مزيد فضل. (المراجعون).

منها ارتفاعاً بنحو خمسين قدماً، بينما كانت الرابعة، الواقعة قليلاً إلى الجنوب، في مستوانا تقريباً. وكان قد بدا لي أن قرنيت أكثر ارتفاعاً من كل القمم الأخرى في مرأى العين. ولكني كنت مخطئاً في ذلك، كما تبين لي في اليوم التالي حين كنت فوق قمة دكة إلى الشمال الغربي منها.

جلسنا فوق الذروة المسطحة الواسعة للقمة الغربية للاستمتاع بالمنظر حولنا، وقد اقتسمنا فيما بيننا نصف رغيف دائري من القمح كنت قد وضعته في جيبي عند الإفطار وغليوناً يمانيّاً لأحد رفاقي. لقد كان الهواء منعشاً، ودرجة الحرارة في الشمس نحو خمس وسبعين درجة فهرنهايت، بينما امتد بصرنا لنحو مئة ميل فوق الغيمة المغطية للأراضي المنخفضة من تهامة، بجوار البحر، الذي لا يرى، إلى الأرض المسطحة الواسعة من سهل ركبة بروابيه المتفرقة. وإلى الجنوب، نحو ثلاثين ميلاً أو أكثر، سلسلة طويلة منخفضة تمثل الأفق، ينتهي طرفها الغربي فجأة في مجموعة من التلال المنخفضة أسفل منا - مع بعض الزوائد الجبلية من حين لآخر، مثل لملم والوقر وشفا هذيل[1] وإلى الشمال منا، نحو ثلاثين ميلاً أيضاً، انتهى طرفنا في سرج الحبلة[2] في الطرف تماماً من السلسلة، والجبال مثل جبل الهندي[3] وجبل دليم[4] في منطقة الهدا. لقد كان اللون الغالب هو البني المائل للحمرة من الجرانيت، كالذي كنا نجلس عليه مع

(١) شفا هذيل: يطلق على جزء من سراة الحجاز، يدفع سيله في وادي وَجّ شرقاً وبعض روافد وادي لية، وهي سراة ذات شعاب عديدة وجبال كثيرة. معجم معالم الحجاز ج٥، ص٧٩. (المراجعون).

(٢) الحبلة: جبل أحمر ضخم ممتد من الشمال من هدأة الطائف إلى الجنوب قرب شفا هذيل. يبعد عن الطائف ١٩ كيلاً غرباً. معجم معالم الحجاز، ج٢، ص٢١٣. (المراجعون).

(٣) الهندي: أحد جبال هدأة الطائف يقع في طرفها الجنوبي الشرقي يشرف على وادي المحرم من الغرب. معجم معالم الحجاز، ج٩، ص١٨٣. (المراجعون).

(٤) دليم: جبل أحمر بارز منعزل عما حوله، وهو أحد الجبال الخمسة التي تعد جبال هدأة الطائف وهي: دليم، وشعار، ومكرس، والهندي، والحَبَلة. معجم معالم الحجاز، ج٣، ص٢٣١. (المراجعون).

قطع من السواد، حيث ظهرت فيه الهورنبلند والغابرو على نحو ما كان في جبال دكة والتلال مثل فروة، وفي السلاسل الجنوبية والغربية. وكان كل ما حولنا كأنه غلالة من خضرة متنوعة من العرعر والخزامى والنباتات تغطي السفوح والوديان، بينما احتضنت كل ثنية من الهضبة الصخرية تحت أقدامنا أكواخاً متناثرة لقرية صغيرة، وحقولاً مدرجة، تمثل زراعتها الموسمية الشغل الشاغل لقاطنيها. لقد كان مثيراً فعلاً كيف تبدو المنطقة كثيفة السكان حين يراها المرء من الأعلى.

وعلى بعد ميل باتجاه الشرق تظهر الطائف ومئذنة مسجد ابن عباس، وقصر شبرا الرخامي في رقعة من الأرض الخضراء. وشمخ غمير بين السلاسل المحيطة به وتل القيم، الذي إن نظر إليه المرء من قرب أو بعد، بدا، وبصورة تلفت النظر، كأنه قبة كولونيا. وفي الوادي، وراء السلسلة الأولى إلى شمالنا الغربي، تقع قرى الفرع المتناثرة، أهم قرى الشفا، بينما وراءها، في الاتجاه نفسه، وخلف سلسلة أخرى برزت قمة دكة، سوداء ببريق من الخضرة على صفحتيها، وسلسلة برد الساحقة إلى اليمين، وأبعد منها. وإلى الجنوب، بيننا وبين آخر سلسلة ذكرناها، التي يسمون سكانها بني يوس ولا يعرفون اسمها لأنها تقع على مد البصر في أرض تهامة، تقع مجموعة من ست أو سبع سلاسل معترضة، أقل ارتفاعاً ولكنها مماثلة، تبدأ كل واحدة منها من ارتفاع غير عالٍ من مستوى الهضبة وترتفع إلى قمة نحو الغرب قبل أن تختفي في أعماق تهامة، الاسم الذي يطلقه سكان الجبال على التلال التي تحيط بسلسلة الشفا شديدة الانحدار لا على السهل الساحلي نفسه. وهي أيضاً فوق علمهم. وأسفلنا، نحو الشمال، يلتقي الواديان الضيقان، سنة وغريف، لينحدرا نحو

وادي حرجل[1]، ثم إلى وادي ليّة. وإلى الجنوب والغرب يلتف منخفض إتربا حول أسفل قرنيت ليختفي فوق طرف السلسلة ثم في وادي نياط المتعرج، الذي أمكننا متابعة مجراه إلى مسافة بعيدة، حيث يلتحم بالخط الرملي العريض من وادي لملم، الذي يسير عليه طريق الحج الساحلي الرئيس القادم من الجنوب والمتجه إلى مكة.

لقد كان الهبوط سهلاً، وإن كان في عجلة. وكان معظم رفاقي وبلا مبالاة قد حملوا كميات كبيرة من الأعواد اليابسة لنيران أمسياتهم، ومضوا في نشوة بالرغم من ذلك لما حملوه. ولكنهم عدوا قرنيت مرتقى في غاية الصعوبة ووعدوني بشيء أيسر في دكة صباح الغد. لقد استغرق منا ساعة -هو الوقت نفسه للصعود- للوصول لنقطة بدايتنا، حيث ارتحنا لما يكفي لتناول شاي حبيب إلى النفس، وخبز. وبعد أن استأذنا من مضيفينا الكرام بالرمز المادي لصداقتنا المتبادلة، انطلقنا على أقدامنا نحو أقرب محطة في برنامجنا ذلك لأن الجزء الأول من الرحلة كان صعباً على الحمير. فصعدنا وادي الغريف أولاً، وفيه أشجار التين وعنبة التفت حول شجرة سدر ذات ارتفاع غير عادي. وأوصلتنا ربع ساعة إلى رأس الوادي ومضيق جبلي منخفض، هبطنا منه بانحدار شديد بطريق صخري إلى حقول الفرع، في حوض تطل عليه، وتسوره، حواف أرض مرتفعة من الجرانيت اسمها منتهرة. فركبنا في أسفل الحوض ثم كان علينا إراحة حميرنا من ثقلنا مرة ثانية في أعلى الأرض المرتفعة التالية، التي كانت جزءاً كبيراً من مسرح واسع مكشوف من المنحدرات المكسوة

(١) حرجل: واد لبني عُمَر من ثقيف يسيل من جبل قرنيت، فيدفع إلى لية جنوب الطائف، معجم معالم الحجاز، ج٢، ص٢٥٧. (المراجعون).

بالعرعر حول المدرجات الزراعية في رأس وادي حرجل. وكان جيش من الغربان، يدور في الوادي بحثاً عن إفطارها من ثمار العرعر، ويبدو منهم أنهم كانوا مستائين من تدخلنا العابر.

وكانت هناك قرية صغيرة هادئة عبر الطريق حين عبرنا الأرض المزروعة، التي تؤدي إلى واد عميق كثيف الأشجار. وعلى بعد مسافة من الطريق الصاعد وجدنا بركة ظليلةً من الماء، تحدث صوتاً كان قصير الأجل. فقد كانت هناك امرأة مع قطيعها من الأغنام والماعز تقيم في المكان، ولكنها سرعان ما تقهقرت إلى مسافة مناسبة، بينما أنعشنا أنفسنا في الينبوع. وبدا أن لها لهجة غنية مفردة المقاطع من أصوات تخاطب بها الحيوانات تحت رعايتها.

وقريباً من أعلى الوادي دخلنا في أول المزارع المدرجة من منطقة الفرع، مع قرية صغيرة معلقة في قمة الربوة نحو مئة قدم فوقنا. وسرعان ما وصلنا سطح الهضبة، ومشينا مع الوادي ذي المدرجات الزراعية التي زرعت بقمح يبدو أنه محصول هزيل ربما أنه قد حصد في يونيو أو يوليو. وكان العرعر لايزال يلازمنا. وقبل وصولنا القرية الرئيسة بالمنطقة، واسمها النقع، مررنا بمقبرة واسعة القبور، يحيط بكل واحد منها سور منخفض من حجارة الجرانيت والكوارتز، ويقف فوقه شاهد قبر عال. ولاحظت أن صالحاً، كلما مررنا بقبور الموتى، كان يتمتم بدعاء أو تحية وهو ماشٍ. وفي النقع سعينا لنستفسر عن أي مكان مناسب لإقامتنا فيه، ولكن السكان آنذاك كانوا في المسجد لصلاة الجمعة، فمضينا في طريقنا لأني استحسنت أن يكون مقرنا في أقرب مكان من وسط مجموعة القرى المبعثرة في أنحاء الوادي. وبعد عشر دقائق جذبنا ألجمة حميرنا في قرية حلبة، وجاء من سيكون مضيفنا تلك الليلة يعدو في الفضاء

الفاصل بيننا ليرحب بنا - وبعد استفسارات مهمة خرج منها بأننا زوار محترمون (وغير مفلسين) من الجوف، كما يسمون وادي الطائف المنخفض عنهم بالمقارنة. لابد وأن كنا أزيد قليلاً على ٧٠٠٠ قدم فوق سطح البحر.

انتظرنا قليلاً خارج الباب ريثما نظفت غرفة الضيوف، ونشرت عليها الشملات، المصنوعة محليّاً، لاستقبالنا. لقد اتضح أنها كانت شيئاً من عريشة، مسقفة بالخشب والسعف، في وسطها موقد نار القهوة، وموقد آخر قرب الباب. فاخترت لنفسي موقعاً قريباً من الباب للهواء والنقاء بينما اختار رفاقي التجمع حول الموقد في الكآبة الداخلية بالعريشة. وانشغل مضيفنا، حمود بأمر ضيافتنا، كما جاء أبوه حميّد ليرحب بنا، يغمز لي بعينه متعمداً وواضعاً يده على صدره صامتاً، كأنما يريد أن يقول إن به كنزاً من حسن النية والقدرة على تحويله لمنفعة المستحق.

لقد كانت عريشتنا واحدة من عدة أبنية من الدور الواحد، مجتمعة حول ما يمكن أن يسمى فناء مزرعة. أما حميرنا فإنها أدخلت في حظيرة مكشوفة مجاورة لنا، وعلفت قصب الذرة، بينما تركت الأغنام والطيور حرة طليقة في المكان، الذي خصص منه كوخ للنساء، كما أن بناءً آخر - بيت حسن البناء من الحجارة - بدا وكأنه غير مأهول، ومقفول بقفل ومزلاج - ربما كان صومعة حبوب. ووراءنا على سفح التل المنخفض الذي كانت عليه القرية، مجموعة من الأكواخ والعرائش، بينما وقف في أعلى مكان منها حصن بطابعه المألوف. وهكذا كانت قرية الحلبة، وهكذا كانت القرى الصغيرة الأخرى في المنطقة المسكونة، وذلك حسبما رآه المرء من قرب أو من بعد. ولكنها لم تكن كلها بحصون برجية - ويبدو أنها كانت خمسة فقط -، بينما امتازت النقع عن

قريناتها بكونها مقر الأمير أو الزعيم، والإمام الذي كان المعلم أيضاً، وكانت هناك عريشة من عرائشها تؤدي دور المسجد الجامع لكل القرية.

إن الأمير صبحي، وسكان كل القرى التابعة للفرع ينتمون إلى ساعد، من بني سفيان، إلا قرية ملحة، التي ينتمي سكانها إلى الحجة. ويمتلكون أرضاً لاشك أنها أخصب الأراضي المزروعة في هذه المنطقة وأكبرها، إذ تنتشر مزارعهم المدرجة والمسورة بالتروس في رقعة واسعة، لنحو خمسة أو ستة كيلومترات من طرف السلسلة إلى النقطة التي يضيق فيها الوادي فيصبح ضيقاً في مجراه المنحدر نحو ليّة. فإلى جانب القمح والشعير، فإن المحصول الرئيس للمنطقة هو التين الشوكي، التي ترسل فاكهتها اللذيذة والثرية للطائف ومكة في صناديق خشبية، ٤٢ × ٦ × ٦ بوصات في حجمها، لتباع بريالين أو ثلاثة (ستة أو سبعة في مكة)، وذلك حسب الطلب، لحمل الجمل، وهو ستة عشر أو عشرين صندوقاً. إنها لفاكهة رخيصة الثمن، مقارنة بالعنب والرمان من الطائف وليّة، ولكنها لا تكلف شيئاً في زراعتها سوى غرز عود من الصبار، كريه المنظر، في الأرض. ومن الأشياء الأخرى، فإن الطماطم (القوطة) والقرع غالبان، بينما تكثر الفصفصة، بل وحقول من الشعير لم تحصد بعد في هذا الوقت المتأخر من الموسم. ومن بين أشجار الفاكهة شاهدت التين، والتفاح، والمشمش، والعنب متسلقاً الأشجار. أما الري، فإنه من الآبار، بعمق عشرين قدماً، قد حفرت لنحو عشرة أقدام في التربة الطينية، مع حسن تبطين بالحجارة، وللعمق نفسه في صخور الجرانيت الواقعة تحتها. تتولى الأبقار رفع الماء، على هيئة أزواج غالباً. ومن كل النواحي، فإنها تبدو كأنها قرية صغيرة مزدهرة، وإن كثرت الشكوى من الجفاف حالياً.

قدمت لنا وجبة من الخبز والعسل حالاً بعد وصولنا. ثم بدت مني علامات الرغبة في الخروج للتجول. وحينئذ جاءني حميد يرجوني ألا أغامر فأرهق نفسي. فاستنتجت أن له أسبابه في كراهيته خروجي للتجول في المنطقة. ولكن بعد قليل من الوقت ضاع في النقاش واستسلم وذلك حين نويت استئناف رحلتي لأن ذلك لم يكن ليناسب ما كان ينويه لمحفظتي. ومع ذلك فإنه لم يستسلم فحسب وإنما أصر على مصاحبتي بنفسه. ولعله كان يخشى أن يرميه الأمير في الجمر لعمله مرشداً لشخص لم يزر رئيس المنطقة بعد - وآنذاك كنت فعلاً لا أعلم بوجوده. ولعله كان منزعجاً حين بدأنا رحلة الظهر، وعزفت عن استعمال شبكتي لصيد الفراشات بالرغم من الإغراء الذي كان يحدث أحياناً. وما أن ابتعدنا عن كوابيس البشر حتى بدأ يهدأ قليلاً قليلاً. وأثناء عودتنا بدأت أعلمه شيئاً عن علم الحشرات ؛ ولكني أخفته مرة بتناولي عوداً صغيراً من نبات ما يقال إنه سام ويسبب العمى الفوري. حتى قال، موشكاً أن يصيح "كبه! كبه!". ولكن رافقني ساعة أقنعته بأنه لاخطورة في شخصي الخاص من الجنون، أصبح راضياً، بعدما اقتربنا من الدار، تركني وحيداً أتجول حيث أشاء حتى الغروب. ودنوت لأخاطب مجموعة من أسرة واحدة تعمل في بئر مجاورة، وأصغيت لمخاوف رب العائلة إن كان ذلك الانتفاخ القبيح في البناء الحجري سيؤدي يوماً إلى انهيار البئر قال متمنياً: "آه! ليتني أجد بعض المال حتى أصلح الأمور".

وكان حميد قد ساقني إلى أعلى الوادي مروراً بقرى بلاد أهل منصور وقرن (الثانية أطلال فيما يبدو والأولى فناء مزرعة ومعه حصن) حتى الطرف الفعلي للسلسلة حيث يغوص خانق عميق ضيق رأساً في شعب الحويّة، ٢٠٠٠ قدم

أسفل من موقعنا، الذي يتعرج في طريقه، بين السفوح المنحدرة لسلسلتيها المجاورتين له، إلى سهل تهامة. ويمثل السلسلة شبه دائرة واسعة، تتدرج في انحدار شديد نحو الوادي، مكسوة بالعرعر النامي وسط الفجوات على سفح الجبل. لكن المنظر لم يكن مكشوفاً كالذي استمتعت به في الصباح من قرنيت، لكنه من بعض النواحي كان أروع، لأننا كنا نقف لا فوق ذروة وإنما على الطرف الفعلي لجرف لنطل مباشرة على هاوية تتثاءب.

ولما رجعنا قبل الغروب بقليل جيء بخروف يرفس لأتقبله ثم ذبح بعد ذلك. ولعل خبره كان قد انتشر في كل المنطقة، إذ سرعان ما اكتظ كوخنا بالزوار. حياني أحدهم في الظلام، عن بعد، ونحن جلوس حول نار القهوة، وأنا أكتب مذكراتي في ضوء سراج ضعيف يتراجف فتيله. ولم يكن ذلك الشخص سوى الأمير صبحي، ! فهمهمت بشيء من الاعتذار بعد تبيني من شخصيته، وسرعان ما أجلسته بجواري، لنشترك في غليون، ونشرب الشاي ونتحادث. لقد كان همه الأساسي إغرائي بزيارة بيته، الذي كنا قد مررنا به في الصباح، لفنجان من القهوة، صرفت إلحاحه بالاعتذار له بأن الوقت ضيق، وأن زيارتنا المقررة لدكة مهمة لسعادتي. لذلك، فإنه في هذه المرة ضاعت منه " الشكلات "[1] التي ربما كانت نصيبه لو لم يكن يصلي حين مروري. ولكنه على أي حال استمتع بعشاء طيب من لحم الغنم والأرز ونام معنا. لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أنام فيها بالداخل لشهور. وكنت حكيماً باستلقائي في أقرب مكان ممكن من الباب، ذلك لأن عبد اللطيف والآخرين النائمين في داخل العريشة أقض مضاجعهم مجيء زوار آخرين شاركوهم

(١) عملة قديمة لا تزال تستخدم. «المترجم».

الفراش. ونمت نوماً عميقاً، ولم أشأ أن أتوثق من المصدر الفعلي لمعاناتهم.

وفي السابعة صباح اليوم التالي انطلقنا، وقادنا طريقنا أولاً شمال غرب إلى قرية منصور، ومنها شمال شرق صعوداً في وادي ملحة ومروراً بقرية بالاسم نفسه إلى قاع حاجز شبه دائري مكون من سلسلة شعر إلى اليسار وليّة إلى اليمين، ليلتقي الاثنان فيكونا مضيقاً، ومنه نظرنا خلفنا، وفوق المرتفعات المعترضة أمامنا، إلى الجانب العريض من قرنيت، الذي كان بحق كجمل ذي سنامين قد طويت عنقه إلى الوراء. وأوحت لي الحقول المدرجة أعلى المنحدرات، وغزارة العرعر، بإمكانية زراعة الزيتون. وأفادني رفاقي - وإن لم أر شيئاً - أن الزيتون البري ينمو فعلاً في هذه النواحي. لذلك فإنه لن يستعصي على المرء تلقيح ذلك النبات البري بقطع من النبات المزروع، لأن المناخ والتربة والأمطار كلها في صالح مثل هذا المشروع.

ومن المضيق نظرنا أسفلنا بين غابة العرعر إلى وادي عواس، ووراءه إلى السفوح الخضراء الزرقاء لقمة دكة نفسها. وفي مكان عالٍ إلى جانبها، وإلى الشمال الغربي منها، يبدأ وادي عواس مجراه المنحدر الذي يقوده، مروراً بقرية بقلة وحصنها على ضفته اليمنى، إلى ملتقاه بوادي كيلان السحيق، ومنه، وبين قريتي دهله واللَّيْق (الضيق)[1] في جهة الشمال الشرقي. وبعد ذلك يتغير اسمه ليكون وادي الصفراء، ويجري بانحدار أقل، ومستقبلاً فيض وادي عقيلة في منتصف الطريق، حتى يلتقي بنظام الوادي الذي يغذي وادي ليّة.

ترجلنا وهبطنا بانحدار إلى دهلة، وبعدها إلى قرية حموري من اللَّيْق، وبعد تركنا حميرنا مع محيسن وعبد اللطيف، مذكرين لهما بالغداء، بدأنا

(١) الضَّيْق: واد لثقيف جنوب غربي الطائف، فيه مجموعة من القرى الزراعية. معجم معالم الحجاز، ج٥، ص٢١١. (المراجعون).

صعودنا، يرافقنا ويرشدنا طفل ذكي من بيت حموري، أثبت أنه متسلق ممتاز للجبال، وماهر في قبض الجندب، الشيء الذي نال به ست بنسات.

لاشك أن دكة أسهل، مقارنة بقرنيت، ولكننا لم نصل ذروته بلا مغامرة. لما بلغنا مسافة ٤٠٠ قدم من الذروة، توقفنا لاستراحة قصيرة. وحين نظرنا خلفنا، رأينا ثلاثة رجال صاعدين الجبل، في خطوات مسرعة، جادين في اللحاق بنا فيما يبدو. وبدا أن صالحاً وحميداً، اللذين كانا يرافقاننا من الفرع مقابل ريال إضافي، قد تضايقا وانزعجا. وما لبثت أن عرفت أن مطاردينا كانوا هذليين من بقلة، يقع في منطقتهم السفح الغربي لدكة، بينما يقع في منطقة الحجة السفح الشرقي منه، شأنه شأن وادي عواس ابتداءً من الليق وأسفل. وسرعان ما كانوا معنا، ولم يضع أي وقت بحثاً عن التبريرات. سألهم صالح. "هل معكم خبر لنا. أم أنكم تريدون خبرنا ؟". قال رئيس جماعة هذيل: "خير، دعونا نعرف خبركم"، وهو شاب أنيق، يرتدي إزاراً، وعلى كتفيه العاريين عباءة ثقيلة من جلد الماعز. وسرعان ما علم أني زائر من الطائف، جئت لتنفس الهواء وسط المرتفعات، وأني، كما يرون، أفكر في عمل الشيء نفسه من ذروة دكة. فعبروا عن ألمهم ودهشتهم في إغفالنا التمتع بضيافة بقلة، ولم يظهر عليهم قبول توضيحنا البدهي بأن ذلك كان سيؤدي إلى دورة طويلة بعيداً عن الخط المستقيم.

وباختصار، فإنهم اعترضوا على تقدمنا خطوة للأمام، وكبديل عرضوا علي أن أصعد برفقتهم وبإرشادهم، بينما يرجع رفاقي القدامى. فاعترضت على ذلك بشدة، عارضاً عليهم أن نصعد جميعاً معاً، وأني لن أنسى حظهم من الغنيمة، مضيفاً أن الأمر لايهمني كثيراً، سواء صعدت إلى القمة أم عدت إلى حيث كنا. فقام صالح وحميد، واحداً بعد الآخر، بالانزواء جانباً بعبيد الله،

الزعيم المنافس، ليزيدا في شرح الموضوع، وبإشارة إلى الفائدة المادية التي يمكن جنيها بالسلوك المعقول. ولكن المعارضة لم تسع إلى الوصول إلى ثمن وسط - فإن ذلك سيكون مخالفاً لقانون الضيافة كما هو مفهوم في هذه المناطق - وخَفَّت ضراوتهم شيئاً فشيئاً في سبيل رحلة مشتركة للقمة. وبعد أن أصبح كل شيء على ما يرام، استأنفنا سيرنا، وإن ظل عبيد الله، الذي تولى القيادة، يتوقف من حين لآخر يتفحصني بشدة بعينيه العسليتين كأنه يتساءل ! وفي كل حالة، وإن كنت ألهث من الصعود، كنت أحدق فيه بانزعاج، ثم يمضي، لايزال متسائلاً، حتى وقفنا فوق ذروة دكة في نهاية الأمر. وعند استخدامي مقياس الضغط غير المائي (الأنيرويد) الذي كان في جيبي، اكتشفت أننا كنا في ارتفاع أعلى من قمة قرنيت. لذا، وفي أغلب الاحتمالات - لأنه ليس من الحكمة أن يجزم المرء في هذه الحالة - أن دكة أعلى نقطة في الحجاز، ٨٣٥٠ قدماً فوق سطح البحر، اعتماداً على قراءات سابقة أو لاحقة بالأنيرويد عملت من جدة.

وباستثناء بعض القرى السكنية أسفل الجبل في الوديان النازلة من جوانبه، فإن المنظر الفسيح الذي يحظى به المرء من ذروة دكة يشبه كثيراً ذلك المنظر الذي استمتعت به من على قرنيت. لقد اختفت مدينة الطائف وراء السلسلة، ولكن شبرا برز بوضوح، بينما ظل الأفق هو نفسه في كل الاتجاهات. إن اللمعان الأخضر المميز لدكة، حينما ينظر إليه المرء عن بعد، راجع في المقام الأول لشجيرات تسمى شعث، تنمو بغزارة على السفوح الحجرية. وهنالك العرعر أيضاً، في كل المسافة حتى أعلى الجبل، الذي يمثل جسمه الأساسي صخر أسود، ربما كان البازلت أو الهورنبلند، بحواجز من الكوارتز. وعلى ذروة الجبل عريشة غير مسقوفة من الحجارة (للرعاة)، بمحراب نحو مكة، بما يوحي أنها كانت للصلاة. فليس من هذا المكان ولا من قرنيت أمكننا أن نرى شيئاً من مكة، الواقعة في اتجاه جبال الحبلة،

وخلفها. وفي الاتجاه نفسه يقع الدرب الذي يسلكه أهل هذه الوديان بثمارهم وعيدانهم إلى المدينة. وحسبما فهمت، فإنه ليست هناك دروب فعلية تهبط هذه الخوانق المؤدية إلى أسافل الجبال وتهامة. فحين يأتي الشتاء، ينزل معظم سكان الجبال بقطعانهم إلى هذه الأودية حتى الربيع، حين تكون المحاصيل التي كانت قد زرعت في نوفمبر في كامل نموها.

وفي الليق، في أسفل الجبل، نحو ١١٠٠ قدم من القمة، وجدنا أسرة حموري وأصدقاءهم متجمعين لاستقبالنا. وكان حسن، رب الأسرة وجدٌّ مرشدنا الصغير، هو صاحب الفضل. لقد كان طاعناً في السن ولكنه كان حيّاً ودافئاً. وهنا وجدنا اختلافاً عن المساكن العادية التي كانت في الشفا. فغرفة الضيوف كانت كوخاً من الحجارة نحو اثني عشر متراً مربعاً، بسقف من السعف، عرضها الشمالي مفتوح في مصطبة مستطيلة واسعة تطل على الوادي أسفلها. ولقد صادفنا النظام نفسه في أماكن في أسفل الوادي. ولم أستطع أن أتأكد إن كانت المصطبة لأغراض اجتماعية أم أنها كانت مكاناً لطحن الحبوب- ولعلها كانت للاثنين معاً، وهذه ظاهرة حسنة. كما كانت هنالك منازل قليلة أخرى قريبة، وحصن من النمط المألوف نحو ٣٠٠ ياردة مع مجرى الماء. ويوجد في بطن المجرى حيضان بسدود، وعلى المنحدرات على جانبي المجرى حقول مدرجة.

كان غداؤنا من الخبز والعسل، ولكنهم جاءوا بخروف أملاً منهم بأن ننتظر لنأكله. لكن خطتنا بالتحرك فوراً أنقذت حياته. وفي الساعة الواحدة ظهراً بدأنا الرحلة عبر بطن مجرى الماء لنتبع طريقاً يؤدي شمال شرق على منحدر ضفته اليمنى. وبعد أربعة أو خمسة كيلومترات أتينا إلى قرية أخرى من الليق، كاملة بحصنها، وأكواخها ومقبرتها. وهناك تركنا الوادي لنعبر سلسلة إلى آخر يجري موازياً له، اسمه المسيمر. وفيه كانت قرية صغيرة أيضاً للحجة،

جئنا بعدها إلى الوادي الرئيس، الذي كان يجري هنا في اتجاه شمالي شرقي في بطن صخري، حصوي، عرضه نحو خمسين ياردة، لا أثر فيه لأية زراعة. واسمه هنا وادي الصفراء، يجري كفرجة واسعة بين غابات العرعر الكثيفة على جانبيه. فتابعناه لنحو كيلومترين منحدرين إلى ملتقى وادي العقيلة، وهو وادٍ مرتفع رائع، يرتفع بانحدار وسط جلاميد ساقطة وبقع من العرعر. وهنا وهناك، ولعل ذلك كان في الأزمنة الغابرة، حيث كانت تعترضه سدود. أما الآن فلا أثر لأية زراعة في الأماكن المنخفضة منه، وإن كانت هناك برك من الماء متفرقة على السطح. وعلى صخرة قذفت بها الريح والمياه في مكان أمين لمحت أشكالاً مستطيلة مع خطوط ونقط، مرصوفة على عجل، ولكن رفاقي عجزوا عن تفسير معناها لي.

وفي مكان أعلى، تركنا الوادي لنتابع طريقاً صعدنا به إلى مضيق مطل على منظر رائع لقرية العقيلة وحصنيها، ولقرى صغيرة أخرى على جانبي الوادي الذي ملأته الحقول المدرجة والسدود تماماً. إن العرعر ينمو عالياً ومستقيماً، ولعل ذلك راجع لقطعه المستمر، كما أن الحقول كانت تكسوها تربة طينية رملية نوعاً ما. وأثناء هبوطنا، مررنا برجال منشغلين بمحاصيلهم، بينما كانت بنتان صغيرتان، في تنورتين مخططتين، بأهداب ذات أشرطة زرقاء وبيضاء في أسفلها، ترعيان حملاناً في ظل أشجار كاملة النمو، من بينها خرفان غريبة الأشكال، مطلية بقطران ليقيها من "القراد".

وفي رأس الوادي، وعلى ارتفاع نحو ٢٠٠ قدم فوق ضفته اليمنى، جئنا إلى مجموعة قرى لأمير المنطقة، واسمه دخيل الله الحجي. ولم يكن بها من أحد سوى النساء، وكان حميد قد فارقنا في الليق عائداً إلى داره -ولكن صالحاً لمح الأمير على بعد نحو ميل في الحقول الواقعة أسفل من مكاننا،

مسايل المياه بين وج وليّة. إن وادي العقيلة جزء من الأخير، بينما يمثل شعب غرضان، المواجه لنا الآن، رافداً من وادي شَقرَى[1]، الذي يسيل إلى الوهيط، ومنه إلى وج، الذي يسقي الطائف.

لقد رأينا غميراً من بعد، بينما كان جبل برد العظيم، حاد القمة منحدر الجنبات كظهر الخنزير، في متناول اليد إلى الجنوب الغربي. وقادنا هبوط طويل، لكنه سهل، إلى حافة ربوة من الجرانيت الأحمر، وعند هبوطنا منها وجدنا طريقنا على الأقدام، وبطريق متلوٍ، إلى بطن شعب غرضان، الذي وجدنا فيه أشجاراً كثيفة من السلم بدلاً من العرعر المألوف في الأماكن العالية، إذ كنا آنذاك على نحو ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، ونحو ١٠٠٠ قدم تحت هضبة الشفا الرئيسة. وفي ربع ساعة وصلنا إلى أقصى حصون شَقرَى الثلاثة شمالاً. ولما كانت الشمس مؤذنة بالغروب، رأينا أن نبيت حيث كنا، وإن لم يكن الحصن والقرى المجاورة له مأهولة، ولم يكن معنا شيء للعشاء.

ولما عجز صالح عن دفعي لأتجول في الأماكن العليا بحثاً عن طعام، انطلق منفرداً بحثاً عن طعام، بينما شرع عبد اللطيف ومحيسن يعدان الشاي. ولما لم يكن لدي مصباح، فإني نويت العودة، حين عاد صالح ومعه رجل، كان قد وجده يبحث عن جمل له ضائع، تبين، وبمحض الصدفة، أنه صاحب تلك الأكواخ. لكن خزائنه كانت خالية تماماً، ولم تكن فرص الحصول على أكل مشجعة، وإن كنا نرى ناراً غير بعيدة لمطبخ أو مخيم. وفجأة، ومن غير إنذار، برز مضيفنا، حاملاً قدحاً كبيراً، ليدعونا للعشاء! وتبينت في الظلام عدداً من

(١) شَقرى: عقبة بين رأس وادي القصر ووادي خماس يأخذها طريق شفا هذيل، تقع جنوب الطائف بنحو ١٥ كيلاً. وشقرى أيضاً شعب يسيل من عقبة شقرى. معجم معالم الحجاز، ج٥، ص٨٣. (المراجعون)

الكعكات المدورة، فمددت يدي للخبز، المرغوب فيه شاكراً. ولدهشتي كان لزجاً، فأدركت فوراً أن طعامنا لم يكن خبزاً، وإنما أقراص عسل، جيء بها، كما علمت، من مناحل لا تكاد تبعد عنا عشرين ياردة. ولقد كان عسلاً رائعاً. وفيما بعد جيء بعصيدة حارة من القمح لتكمل وجبتنا، ولقد كانت جماعة هانئة، جماعتنا تلك التي أخلدت للراحة في ظل الحصن العالي. وبدا أن أحد جانبي الباب، من الصخر الأسود، كان به شيء من نقش، كادت تمحوه الشمس، والجو والزمن، بينما كانت على عتبة الباب، من الحجر غير المنعم، علامات غريبة، وإن كانت حديثة، معها ثقوب رصاص، هي الشاهد الوحيد على معركة ما منسية الآن.

إن الغريب في الأمر، أني كنت قد قضيت هذه الأيام القليلة في منطقة مشهورة، بل كأنها تفيض، بالعسل، دون أن أرى أية علامة لصانعيه أو الطرق التي يتبعها السكان في مناحله. ولقد استفسرت فعلاً، لأعلم أنه لا خلايا للنحل في المنطقة التي استعلمت فيها؛ ولابد أني قد مررت قريباً من حيث تمكن رؤية الخلايا، دون أن يعلم رفاقي أني كنت أود رؤيتها. إن المعلومات العامة الوحيدة التي حصلت عليها كانت، أولاً، أن النحل في أغلب الأحوال يكون في مرتفعات أقل من الشفا، ذلك لأن الشفا قاس جداً عليها، وثانياً، أن معظم العسل يأتي من خوانق تهامة. ولكني قيض لي سد هذا النقص في تجربتي خلال ساعات قليلة بعد نهاية رحلتي. فما أن طلعت الشمس حتى قمت بزيارة العيدان التي كان مضيفي قد نهبها في المساء. لقد كانت واقعة في عريشة من الحجارة، تشابه سائر المباني الأخرى في فناء المزرعة إلى حد كبير، وأحد جوانبها مفتوح نحو الجنوب. وكانت كل خلية مكونة من برميل، طوله

نحو ثلاثة أو أربعة أقدام، وقطره نحو ثماني بوصات، مصنوع من ساق شجرة سلم تامة النمو. وسدت الفتحتان الأمامية والخلفية للبرميل بقرصين دائريين من الخشب يناسبانهما ويقفلانهما بإحكام تام، يمكن خلعهما وإعادتهما بيسر. وكان أسفل القرص الأمامي (المتجه للخارج) مكسوراً كسراً يسيراً ليسمح بدخول النحل وخروجه، التي بدت أصغر حجماً من نظائرها في إنجلترا، مثلاً. ورصت البراميل في طبقات، بعضها فوق بعض (اثنان، ثلاثة أو أربعة، حسب الحالة) بطول واجهة العريشة، بينما وضع فوق البراميل، وما بين الخلايا، كسوة أو حشو من الركام، والفروع والقش والحجارة لحفظ الحرارة في مستوى مناسب. وخلف الصفوف مكان لسارقي العسل، الذين يخلعون القرص الخلفي، ويخرجون أقراص العسل بقطعها في حلقات بسكين. ولابد أنه كان في مناحل (حلي) شقرى نحو خمسين خلية على الأقل، وإن لم يكن بها كلها نحل لأن موسم الجفاف الماضي كان قد فعل بها ما شاء. والأقراص دائرية، قطرها قطر الخلايا، ونحو بوصة في عمقها. ويوضع شمع باليد في كل خلية ليكون نواة لها. والنحل نفسه يجمع بطريقة تقليدية بأيدي خبراء، الذين يعثرون على الملكة (يسمونها " أب " هنا)، ويضعونها في شرك خشبي، فيلتف حولها الجمع، فيغطونه بقماش، ويأخذونه إلى ديارهم. وفي موسم الجفاف تقدم للنحل عجوة التمر ليتغذى منها، كما يترك له قدر كبير من العسل، وإلا فإنه سيجد الغذاء والحلوى الإضافية في أزهار الوديان.

كان سيرنا في اليوم التالي (كانت الدرجة الدنيا للحرارة في الليلة الماضية خمسين درجة فهرنهايت) هبوطاً في الأودية الرائعة المتعرجة في وادي شقرى، الذي يتلوى بمحاذاة جبل فروة الفارع، لملتقاه بوادي الطويلة، الذي ربما كان

أسفل منطقة في وادي عمت. وهنا أكد لنا مخيم لقريش، قبيلة محيسن، بخيامه وقطعانه الكثيرة خروجنا من منطقة الحجة. وبعد لحظات قليلة كشفت لنا لفة في الوادي شجرتي الأوكالبتوس التوأمين الرائعتين في الوهيط في المكان الذي كان يوماً ما حديقة رائعة أنشأها الشريف عون قبل نحو خمس وثلاثين سنة مضت، ولا تزال تسقى من غدير نابع من ينبوع جوفي قريباً منها. وإلى جانب ما تزدهي به الحديقة من أنواع الأوكالبتوس، فإن بها كل صنف من النوادر الغريبة، التي تشمل الليمون الحلو، والراتينجية والتنوب، وأنواعاً أخرى من الأشجار، بالإضافة إلى المنتجات المحلية، نحو الصبار والرمان.

إن وادي المخلة، الذي يجري بمحاذاة سفح برد، يلتقي مع وادي شقرى هنا، في زاوية قائمة من جهة الغرب. وقبل ملتقى الاثنين بقليل ثكنات لم تكتمل، كان قد بدأها الشريف عون لسكنى حرسه، ولكنها هجرت عند موته في ١٩٠٥م، لتفنى تدريجيّاً كحديقته النباتية.

يمكن بلوغ الوهيط بالسيارة بسهولة من الطائف، التي تبعد عنها بنحو ثلاثة عشر كيلومتراً، إذ يهبط الطريق في الوادي، الذي به بعض الرمل في بعض الأماكن، وبمحاذاة الضفة اليمنى حتى بلوغ قرية الوهط الآتية بعد ذلك عند ملتقاه بوادي وج، الذي تجري تحته قناة الينبوع الجوفي الذي يفرغ ماءه في حدائق شبرا في نهاية الأمر. والوهط قرية صغيرة، بها قليل من البيوت الجيدة لإقامة زوار نهاية الأسبوع في الطائف، والزائرين من مكة في فصل الصيف. كما أن بها مساحة شاسعة من ري الحياض، تنتج محصولات جيدة من الدخن، وبعض البساتين الممتازة، بعرائش العنب، والرمان، والتين، وأشجار الفاكهة الأخرى، مع الفصفصة كمحصول فرعي.

إن الحمارين، اللذين كانا يسيران بسرعة ستة كيلومترات في الساعة، سرعان ما قطعا المسافة القصيرة عبر سهل طيني إلى يمين البطن الرملي من الوادي إلى المثناة، أولى ضواحي الطائف. ولم يطل بنا الوقت قبل دخولنا المدينة نفسها من باب السيل. لقد انتهت عطلتي القصيرة أسرع مما توقعت، وسرعان ما جرني مضيفي إلى تيار الأحاديث عن الأحداث المحلية، بينما كان ذهني هائماً في نشوة بين قمم الحجاز ومرتفعاته. فعلى البعد، كان قرنيت ودكة شامخين في السماء، لكنهما لم يعودا بعد ذلك الغريبين الغامضين اللذين كانا عندي لزمن طويل. ولا شك أنني كنت أول أوربي يقف فوق ظهريهما. وكوفئ محيسن بما هو أهل له على حماريه ورفقته. وبعد يومين هبطت بسيارتي إلى صيف مكة وجدة الذي لم يزل قابعاً بعد.